الإرسال الثاني الخاص بطلبة السداسي السادس

مقياس النقد النفساني

عنوان المحاضرة: اللغة و بنية اللاوعي (تتممة)

سنحاول من خلال ما سبق عرضه من أراء و نظريات علمية، تقديم نموذج تطبيقي نحاول من خلاله الاستبانة عن محور البينية ،والتلاقي بين التحليل النفسي و التحليل اللغوي، و الوقوف على مستويات التواشج بين مجالي العلمين في مقترح تتجاذبه الآلية النفسية على المستوى الافقي، الذي يعنى بنوعية الألفاظ، و الانزلاقات باللغة و اقتفاء أثر الهواجس و الذهانات، و العصاب الذي يقود الوجهة النفسية للمبدع . و الآلية اللسانية التي تشتغل على المحور العمودي للجمل، فتعنى بالخصائص الصوتية للمونيمات، و علاقة الصوت بالحالة النفسية للذات المبدعة ،و أثر الصوت في طبيعة الدلالة للتخريجة اللغوية الموظفة في ترجمة اللاشعور الدفين و،تجسيد اللاوعي الخبيء.

و سيقودنا هذا التحليل إلى استكشاف بعض الخفايا التي تؤكد أن اللاوعي للأنا ، هي في معظم الأحوال أساس القول، و الخلق و الإبداع .

و إن كان هذا الكبت الذي بقي في إطار الممنوع لفترة ، فإنه سيصبح تحديا و خرقا للمألوف في أي لحظة ، لأنه سيثور لا محالة أمام موقف من المواقف الحياتية التي تستدعيه بقوة، و تجسد حضوره عنوة ، وعلى حين غرة ، رغم أنه رهين الحدود الممنوعة و حبيس قيود اللاشعور.

و ها هو ذا الشاعر العصابي المتمرد أبو نواس ،يجسد لنا صورة هذا الانفعال الثائر ، اذ يتحول هذا الإحساس الفائر إلى إبداع خارق قد لايستطيعه محاول، و يعجزه كل مريد .

يقول في قصيدته الموسومة:لئن هجرتك أروى (1) .

لئن هجرتك، بعد الوصل، أروى فلم تهجرك صافية عقار

فخذها من بنات الكرم، صرفا كعين الديك يعلوها احمرار

شرابا، إن تزاوجه بماء تولد منهما درر كبار

طبيخ الشمس لم تطبخه قدر بماء، لا و لم تلذعه نار

على أمثالها كانت لكسرى انو شروان تتجر التجار

اذا المخمور باكرها ثلاثا تطاير عن مفاصله الخمار

المستوى الصوتي:

من خلال ماهو واضح من التشاكلات الصوتية، التي تتركب منها مونيمات أبيات القطعة الشعرية، يظهر أن الراء و اللام، و غيرها، وقد تكررت في اغلب الألفاظ المكونة لنسيج الأبيات، محققة بذلك مجالا من التحسين و الجودة.

فالراء هو صوت تكراري، و هذه خاصية لصيقة به.

و اللام، منحرفة وجانبية، و هذه أيضا خصيصة لصيقة بها. و لسهولة التلفظ بالراء و اللام، فهي لكثيرة في كلام العرب و بإجراء التفاعل بين هذين الفونيمين، نجدهما من حيز واحد. كما أن العمل الوظيفي المشترك بينهما، يكمن أيضا في احتوائه على صفة الشدة.(1)

و كان حال الشاعر المتمردة وولعه بالخمرة و افتخاره بها، جعل المعنى هو الذي يتحكم في التآلف الفونيمي و يستدعيه، و يسوقه نحوه، فيصير للصوت علاقته بالدلالة العامة للنص.(2)

و يتحقق تكرار اللام في (لئن، الوصل، فلم) من البيت الأول.

كما يتكرر حرف الراء في(هَجَرَتك، أروى، تهجرك، عقار) من البيت نفسه. ثم يتكرر هذا أربع مرات في البيت الموالي. ليمنح هذا التكرار بعدا نغميا لكل أبيات القصيدة. ويسمى هذا التكرار الحاصل على مستوى الصوت لدى البعض الباحثين بالرمزية الصوتية و المحاكاة الصوتية. وذلك لما يقع التطابق بين الفونيم(3)، وصوت معين، كما يمتد هذا التطابق إلى الدلالة، لما ينسجم الفونيم مع المعنى.

كما نلحظ الاتفاق بين حرف الروي، و هو الراء دائما. و بين الحالة الشعورية، التي تتمالك نفسية الشاعر، فهو في حالة تنفيس، وتفريغ علني و صريح، لشعور رافض و مناف للقيم، و لشعور آخر يغمز في الشخصية العربية التي تحيل عليها كلمة: أروى...

ولا يوجد أفضل من اللام و الراء من حروف المنظومة العربية، ملاءمة، و مجانسة مع وضع الشاعر النفسي. ذلك أن الراء من خصائصها أيضا إمكانية إطالتها، فهي من أوسع الحروف مخرجا و اللام كذلك(4). و هذا أمر يكشف عن التقارب الدلالي بين الصوت و البنية الكبرى للقصيدة(5).

ومن خصائص صوت الراء أنه لا يحدث إلا بطرقات عدة يقوم بها طرف اللسان على حافة الحنك الأعلى، و السمة المخرجية للصوت، هو محاولة الانفلات من قيد(6). و الانفكاك من تأزم. و هذه رغبة الشاعر في فك أسره من القيم، و الأخلاق، والأخلاق، و التقاليد العربية. و في البيت الأول يطالعنا تشاكل تركيبي نحوي (لئن هجرتك) في الشطر

الأول، و (فلم تهجرك) في الشطر الثاني، والظاهر أنه تشاكل جاء عفوا سهوا، و لكنه استخدام عمد إليه قصدا، لطرح هدف الشاعر من الموضوع، و إخبار المتلقي و بشكل مباشر، عن طبيعة الرسالة اللغوية. و بدءا من مطلع القصيدة الذي يعد البنية النواة.

و كأن التقابل بين الجملتين الثابتة و المنفية بمثابة طرح لإشكالية النص. مثبتا بذلك علاقة هذا التعادل التركيبي بالمعنى الكلي للقصيدة.

إن هذا النوع من التشاكل، يصب في خدمة المعنى،و قد تحقق على مستوى عدة أبيات من النص. و هدفه كما يبدو تحقيق الإقناع. و إن كان بعض الباحثين يصنفه ضمن ما يسمى باللعب اللغوي، سواء أكان لعبا ضروريا، أم لعبا اختياريا. لكنه لعب له مغزاه، و معناه.

كما يظهر تشاكل أخر على مستوى التخريجات اللغوية المجازية. و هي ناتجة عن و سائط بلاغية(7)، مثلا في قوله: لم تهجرك صافية عقار، فالوساطة المقالية مغيبة هنا. فالوساطة البلاغية تزيل الفروق بين مجالين أو طرفين متناقضين(الإنسان و الخمرة). الخمرة، تشاكل مادي، الإنسان: يتشاكل كائن حي. الوحدات البلاغية الإسقاطية، الخمرة تشاكل الإنسان في مسألة القيام بفعل الوصل و الهجران.

و قد عمد الشاعر إلى اختيار البحر الوافر، و تفعيلاته: مفاعلتن، مفاعلتن، فعول.

وكانت علاقته مناسبة للإيقاع البطيء. ففي الشطر الثاني من معظم الأبيات نستشعر هذا الإيقاع. في حين يتسارع الوقع في الشطر الأول. من كل بيت. وذلك بسبب المد الذي شكل جزءا هاما من الإطار الدلالي، و بخاصة الألف، التي تكررت لمرات عديدة، فخاصية الاستطالة في المد، توحي بالتنفيس، و الراحة، وجمع النفس. و تقطع النفس، يوحي هو الآخر، بتقطع على مستوى الأفكار، و العواطف.

أما فيما يتعلق بالمقاطع الصوتية، فقد حملت هي الأخرى، دلالات عن النغمة الأليمة، و الإيقاع الحزين، و منها الطويلة المفتوحة، و المغلقة القصيرة.

فمن المقاطع المغلقة: ئن، ته، كر، صر، مرن و قد جسدت ثورة نفسية، (حجبها الكبت و الشعور بالأسر و التذمر، و الرغبة في الانعتاق.

ومن المقاطع الطويلة: قر، زار، بار، نار، مار و هي مقاطع قد حملت معاني التنفيس، و التفريغ و يظهر النبر في البيت الأول، فيتبين كالأتي:

لئن هجرتك بعد الوصل أروى فلم تهجرك صافية عقار

و لا شك أن المصدر الحقيقي للإبداع، و الكاشف عن حقيقة المؤلف ماهو إلا اللاشعور الشخصي. لأن الإبداع في جوهره ليس إلا تنفيسا عن الصراع الذي يسكن الشخصية. وراء تفاعل آلياته المتعددة من قمع(supression) ، و كبت (repression)،

و تسام،(sublimation) ،و تبرير(converssion) ، وتقهقر، و هي تفضي جميعها

إلى أنواع شتى من السلوك، قد يكون أرفعها شأنا التسامي الذي (يؤدي إلى إظهار عبقرية و امتياز في الفن أو في العلم.)(8)

و قد كانت للتعابير المجازية الحظوة في هذه القطعة الشعرية بخاصة إذا عرفنا أن خرق قواعد النظام اللغوي هو بحافز نفسي و باعث باطني يحتم على المبدع الجنوح إلى خاصية الترميز. كعلامة على بلوغ مصاف القدرة و الجودة والتحكم في الآلية اللغوية، وهي في الوقت نفسه ثورة صاخبة علنية، و صريحة ترفض القيم، و تجهر بالمحرم خلف ستار الرمز و المجاز.

ففي هذه المقطوعة يتجلى الترميز في الوحدتين الدلالتين (أروى و نبات الكرم).

فظاهر الكلام، ،أن أروى ليست إلا واحدة من الصويحبات اللواتي عرفهن أبو نواس. إلا أن الشاعر، أرادها مجرد رمز. يحيل على ثقافة مجتمع، و قيم حضارية معينة.

فأورى اسم علم، و يقال إنها صحابية، أو إنها من جدات الرسول عليه الصلاة و السلام.

فانتقاء الشاعر لها لم يكن من باب الصدفة، و إنما قصد إليها عمدا، لينال من المجتمع الإسلامي، ويحط من مكانة القومية العربية .

والشيء نفسه بالنسبة لابنة الكرم ، فالخمرة بصفاتها وتأثيرها السلبي على شاربيها ، ناهيك عن تحريم الإسلام لها.

فهي عند الشاعر رمز الحضارة الفارسية. ووسيلة و مادة الاتجار. لها قيمتها و مدلولها في وسطه الاجتماعي و الثقافي. كما نجد الكناية في البيت الثاني، في قوله: نبات الكرم،قول جاء و كأنه طعن صريح في الثوابت الدينية العربية. كما لها تأثيرها في جانبه النفسي، فيجعل منها كائنا حيا، يلعب دورا بارزا في حياته و تفكيره. فتعطيه الشعور بلذة الكؤوس المدارة، و النشوة و الغناء و اللهو في صحبة المجان و الجواري.

فالخمرة أم الخبائث، لكن الشاعر يرفض –كما ترى- أن يكون لها تأثير سلبي خبيث فيستعير لها صفة الكرم، و قد نهى الرسول عليه الصلاة و السلام عن تسمية الخمرة بالكرم، فالكرم شريفة، ذكر عنبها في القرآن، و هي من ثمار الجنة.

و هذا تحدي من الشاعر، و جرأة علنية، و خرق صريح للقيم الأخلاقية و الدينية للمجتمع العربي. و لكنها في منظور التحليل النفسي رغبة الابداع الجانحة التي تريد فرض وجودها بين الآخرين، فلم تجد لها تلبية في عالم الواقع المحسوس فراحت تبحث عن ملاذ آخر في الظهور و التحقق، فانصرفت إلى عالم الوهم و الخيال.(9)

و هو أيضا استعاضة متسامية عن غرض أدنى بغرض أسمى (10) و هي استعاضة أخرى تستعين باللغة حال صدورها كعلاج لأمراض و هواجس دفينة في نفس الإنسانية، و هي إجراء طبيعي إيجابي للتخلص من الإحساس السلبي، و تجديد الذات ، و قذف أردان المكبوتات في مجاهيل النفس، و مكنونات الهموم.

الإحالات:

1-ديوان أبي نواس،دار صادر،بيروت-لبنان-(د،ط)-(د،ت) ص 264.

2-محمد فتح الله الصغير، الخصائص النطقية و الفيزيائية و الصوامت الرنينية-عالم الكتب الحديث،عمان،ط1 2008

3-عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق السيد رشيد رضا، دار القيطاني للطباعة و النشر، دط،دت،ص8.

4-ينظر كتاب البنى الأسلوبية لحسن ناظم

5- البنية الكبرى: هو اختزال دلالات المتتاليات الخطية(الجمل)المكونة للقصيدة(النص)

6- ينظر الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس

7-الوسائط البلاغية هي الاستعارة، و الوسائط المقالية تتمثل في أدوات التشبيه : ك، كأن،مثل،شبه...

8-علي عبد المعطي محمد، فلسفة الفن، دار النهضة العربية،بيروت،دط،1958،ص83

9-جان شارو بنسكي، النقد و الأدب، ترجمة بدر الدين القاسم، دمشق،1976،ص:257

10-حبيب مونسي، نقد النقد، المنجز العربي في النقد الأدبي، منشورات دار الأديب،وهران،دط،2007،ص100